

النثر القديم

العرب والارتجال: (يقول الجاحظ: وكل شيء للعرب فإنما هو بديهية وارتجال، وكأنه إلهام، وليست هناك معاناة ولا مكابدة ولا إجابة فكرة ولا استعانة، وإنما هو أن يصرف وهمه إلى الكلام... عند المقارعة أو المناقاة أو عند صراع أو في حرب، فما هو إلا أن يصرف وهمه إلى جملة المذهب وإلى العمود الذي إليه يقصد، فتأتيه المعاني أرسالاً (أفواجا) وتثال عليه الألفاظ انثيالاً.. وكان الكلام الجيد عندهم أظهر وأكثر، وهم عليه أقدر، وله أقهر، وخطبائهم للكلام أوجد، والكلام عليهم أسهل، وهو عليهم أيسر.. من غير تكلف ولا قصد ولا تحفظ ولا طلب"⁽¹⁾).

أهمية الخطيب: يقول عامر المحاربي في مدح قومه:

وهم يدعمون القول في كل موطن *** بكل خطيب يترك القوم كظمًا

يقوم فلا يعيا الكلام خطيبنا *** إذا الكرب أنسى الجبس أن يتكلما

أهمية الخطيب: وكما كان يدعو خطبائهم إلى الحرب وسفك الدماء كانوا يدعون إلى الصلح وإصلاح

ذات البين وأن تضع الحرب أوزارها، يقول ربيعة بن مقروم الصبي:

ومتى تقم عند اجتماع عشيرة *** خطباؤنا بين العشيرة، يفصل

أهمية الخطيب: وكانوا كثيرا ما يخطبون في وفادتهم على الأمراء، إذ يقف رئيس الوفد بين يدي الأمير

من الغساسنة أو المناذرة، فيحييه، متحدثا بلسان قومه، وفي السيرة النبوية ما يصور جانباً من هذه الوفود، إذ

وفد كثير منها على الرسول ﷺ منذ السنة الثامنة، وكان يقوم خطيب الوفد بين يديه متحدثا، ويرد عليه خطيب

الرسول (ص) على نحو ما هو معروف عن وفد تميم وخطبة عطارد بن حاجب بن زرارة بين يديه. وكان ذلك

سنة شائعة بينهم في الجاهلية حين يفدون على الأمراء أو من له رياسة وسيادة⁽²⁾.

النثر الفني: (إنما الذي يعد أدبا حقا هو النثر الذي يقصد به صاحبه إلى التأثير في نفوس السامعين والذي

يحتفل فيه من أجل ذلك بالصياغة وجمال الأداء، وهو أنواع، منه ما يكون قصصا وما يكون خطابة وما يكون

رسائل أدبية محبرة، ويسمي بعض الباحثين النوع الأخير بالنثر الفني⁽³⁾.

¹ البيان والتبيين، ج 3، ص: 28.

² شوقي ضيف، ص: 411.

³ شوقي ضيف، ص: 398.

النثر الجاهلي: (إذا كان القصص الذي أضيف إلى الجاهليين لا يحمل لنا صورة دقيقة للنثر الجاهلي بحكم تأخره في التدوين فإن الأمثال تحمل لنا غير قليل من هذه الصورة، إذ أن من شأنها أن لا تُغيّر، وأن تظل طويلاً بصورتها الأصلية، بحكم إيجازها وكثرة دورانها على الألسنة. وقد سارع العرب إلى تدوينها منذ أواسط القرن الأول للهجرة، إذ أُلّف فيها صحارُ العبدى أحد النسّابين في أيام معاوية بن أبي سفيان (41 - 60 هـ) كتاباً، كما أُلّف فيها عُبَيْد بن شَرِيّة معاصره كتاباً آخر، ويقول صاحب الفهرست إنه رآه في نحو خمسين ورقة. وإذا انتقلنا إلى القرن الثاني وجدنا التأليف في الأمثال يكثر، إذ أخذ علماء الكوفة والبصرة جميعاً يهتمون بها ويؤلفون فيها، وقد وصلنا عن هذا القرن كتاب أمثال العرب للمفضل الضبيّ، ونمضي إلى القرن الثالث، فيؤلّف أبو عبيد القاسم بن سلام فيها كتاباً يشرحه من بعده أبو عبيد البكري باسم (فصل المقال في شرح كتاب الأمثال لأبي عبيد القاسم بن سلام). وما تزال المؤلفات في الأمثال تتوالى، حتى يؤلّف أبو هلال العسكري كتابه (جمهرة الأمثال) ويخلفه الميداني، فيؤلّف كتابه (مجمع الأمثال) وهو يقول في مقدمته إنه رجع فيه إلى ما يربو على خمسين كتاباً⁽⁴⁾.

(واشتهر في الجاهلية بينهم كثيرون بهذا اللون من الأمثال وما يتصل بها من حكم، يقول الجاحظ: "ومن الخطباء والبلغاء والحكام الرؤساء أكرم بن صيفي وربيعة بن حذار وهرم بن قُطبة وعامر بن الظرب وليد بن ربيعة"، وأحكامهم أكرم بن صيفي التيميّ وعامر بن الظرب العدواني، فأما أكرم فكان من المعمرين، ويقال بأنه لحق الإسلام وحاول أن يعلن إسلامه فركب متوجّهاً إلى الرسول ﷺ، غير أنه مات في الطريق. وتدور على لسانه حكم وأمثال كثيرة، وقد ساق السيوطي في المزهرة طائفة منها نقلاً عن ابن دريد في أماليه، وهي تجري على هذا النسق: ربّ عجلة تهب ريثاء، ادرعوا الليل فإن الليل أخفى للويل، المرء يعجز لا محالة، لا جماعة لمن اختلف...⁽⁵⁾.

خطب الجاهلية: (يقول الجاحظ: "كانت خطبة قريش في الجاهلية - يعني خطبة النساء -: باسمك اللهم ذُكرت فلانة، وفلانٌ بها مشغوفٌ، باسمك اللهم، لك ما سألت، ولنا ما أعطيت". ويقول كان من عادة العرب في هذه الخطبة أن يُطيل الخاطب ويُقصر المجيب. ويتحدّث عن خطابهم عامة، فيقول: "اعلم أنّ جميع خطب العرب من أهل المدر والوبر والبدو والحضر على ضربين، منها الطوال ومنها القصار، ولكل ذلك مكان

⁴ شوقي ضيف، ص: 404.

⁵ شوقي ضيف، ص: 406، 407.

يليق به وموضع يحسن فيه. ومن الطوال ما يكون مستويا في الجودة، ومتشاكلا في استواء الصنعة، ومنها ذوات الفقر الحسان والتنف الجياد.. ووجدنا عدد القصار أكثر ورواة العلم إلى حفظها أسرع".

وليس كل ما يدل على ازدهار الخطابة في الجاهلية ما رأيناه آنفا من تعدد أنواعها وخوضها في أغراض مختلفة من المصاهرة أو الوفاة إلى الأمراء أو النصيح والإرشاد أو الدعوة إلى الحرب أو الكف عن القتال أو في المنافرات والمفاخرات...⁽⁶⁾.

قس بن ساعدة: (ومن خطباء إياد قس بن ساعدة، وهو الذي قال عنه النبي ﷺ: "رأيت بسوق عكاظ على جبل أحمر وهو يقول: أيها الناس اجتمعوا واسمعوا وعوا، من عاش مات، ومن مات فات، وكل ما هو آت آت"⁽⁷⁾).

شهادة الرسول ص في قس: ويقول الجاحظ: "ولإياد خصلة ليست لأحد من العرب، لأن رسول الله ﷺ هو الذي روى كلام قس بن ساعدة، موقفه على جملة بعكاظ وموعظته، وهو الذي رواه لقريش وللعرب، وهو الذي عجب من حسنه وأظهر من تصويبه، وهذا إسناد تعجز عنه الأماني وتنقطع دونه الآمال"⁽⁸⁾.

بين الشاعر والخطيب في الجاهلية: يقول أبو عمرو بن العلاء: (كان الشاعر في الجاهلية يُقدّم على الخطيب لفرط حاجتهم إلى الشعر الذي يُقيد عليهم مآثرهم، ويفنخ شأنهم، ويهول على عدوهم ومن غزاهم، ويهيب من فرسانهم، ويخوف من كثرة عددهم، ويهاجم شاعر غيرهم، فيراقب شاعرهم. فلما كثُر الشعراء والشعراء واتخذوا الشعر مكسبةً ورحلوا إلى السّوق وتسرعوا إلى أعراض الناس صار الخطيب عندهم فوق الشاعر)⁽⁹⁾.

قدر الخطيب في الجاهلية: وعلى هدي هذا القول مضى الجاحظ يقول: (كان الشاعر أرفع قدرا من الخطيب، وهم إليه أحوج لردّه مآثرهم عليهم، وتذكيرهم بأيامهم، فلما كثُر الشعراء وكثُر الشعر صار الخطيب أعظم قدرا من الشاعر)⁽¹⁰⁾.

لغة الكهانة: (ولأن أدب الكهانة من الأدب الخاص كما أسلفنا، فكانت لغة الكهانة تنبثق من شعور التفوق والأفضلية والسمو الروحي على من يستصبحون بهديها، فهي في نظر أصحابها ونظر من يدينون بها لغة

⁶ شوقي ضيف، ص: 412.

⁷ البيان والتبيين، ج 1، ص: 308.

⁸ البيان والتبيين، ج 1، ص: 52.

⁹ البيان والتبيين، ج 1، ص: 241.

¹⁰ البيان والتبيين، ج 4، ص: 83.

خاصة مختارة، لها سند من قوة علوية ملهمة، تتخذ منها أداة لفض أختام الغيوب، وهتك أستارها، ومن ثم كان لا بد أن تستعين بما تستعين به (كديّة الزّار) من التأثير في النفوس الضعيفة المستسلمة، لتشل تفكيرها، وتحدّر تعقلها وتلهيها عن تبيين التدلّسي والتلبّيس، وتسوقها إلى الإذعان والقبول؛ مستغلّة تشوّفها إلى معرفة أسرار الغد، ومطالعة صحف المجهول، لذلك تراها تعتمد على المواربة والرمز والإبهام والاستغراق مرّة، وعلى القسم والظنّين // والجلجلة والتّهويل والإغراب أخرى، حتّى تتحقّق الغاية المقصودة منها⁽¹¹⁾.

حقيقة الخطابة الجاهلية: (والذي يبدو أنّ أكثر ما جاءنا عنهم مخترع مصنوع، ولكن مجيئه على هذه الصورة بعينها؛ دليل على أنهم هكذا كانوا ينطقون، وهكذا كانوا يخطبون، وإلّا لما اتفقت روايات الرواة، ومن قد نحلّوهم بعض الأقوال والخطب، على أنهم كانوا يسجعون هذا السّجع، وإذا صحّ أنّ هذا السّجع مصنوع، فهو لا ينفي أن الأصل مصنوع أيضا، لأن من أراد محاكاة شيء أفرغ جهده وحذقه في مجيئه على شاكلته.

وحسبك دليلا على ما كان للكهان من سجع عرفوا به ما جاء في الأثر: أنّ النبي ﷺ قضى بديّة في جنين، فقال أحدهم: يا رسول الله كيف ندي من لا شرب ولا أكل، ولا صاح فاستهل، فمثل ذلك يطل.

فأنكر عليه الرسول ﷺ هذا الأسلوب، قائلا: "أسجعا كسجع الجاهليّة"، وفي رواية أخرى "أسجعا كسجع الكهان" فجعل السجع مختصا بالكهان بمقتضى الإضافة، كما يقول ابن خلدون⁽¹²⁾.

سجع الكهان في رأي الإسلام: (وإنما بغض هذا السّجع - فوق التكلف والتعسف - أن الكهان الذين كان أكثر أهل الجاهلية يتحاكون إليهم، وكانوا يدعون الكهانة، وأنّ مع كل واحد منهم رثي من الجن، كانوا يتكهنون ويحكمون بالأسجاع)⁽¹³⁾.

ومن الأدبيات الكواهن: الشعثاء، وطريفة الخير التي تكهنت بسيل العرم، وخراب سدّ مأرب، والزبراء، وكاهنة ذي الخلصة التي تكهنت بما في بطن رقية بنت جثم، وسلبي الهمدانية، والعجفاء بنت علقمة والعفّراء⁽¹⁴⁾.

¹¹ أدب النساء في الجاهلية والإسلام، ص: 56، 57.

¹² أدب النساء في الجاهلية والإسلام، ص: 57.

¹³ أدب النساء في الجاهلية والإسلام، ص: 57.

¹⁴ أدب النساء في الجاهلية والإسلام، ص: 58.

النثر المسجوع والقرآن الكريم: (رفع القرآن الكريم النثر المسجوع إلى مرتبة معلومة من التقديس الديني، منذ بلغ به إلى درجة الإعجاز البلاغي. وكان لذلك من الأثر أن كاد الناس يتجنبون استعمال السجع تماما في الشؤون الدنيوية طوال القرنين الأولين من تاريخ الإسلام، وذلك مهابة من إعجاز القرآن العزيز.

وأول ما ظهر السجع ثانيا في النثر العربي كان في الخطبة، التي برزت في أوائل القرن الثالث الهجري، وأخذت تتميز منذ ذلك العهد أسلوبا للوعاظ المحترفين، الذين صاروا يصوغونها صياغة فنية محكمة ومن هنا انتقل السجع في أثناء القرن الرابع إلى دائرة الأدب أيضا، فظهر في كتابة الرسائل وفي أدب المقامات⁽¹⁵⁾.

تعلق المترجم: (للمؤلف العذر في عجزه عن فهم طبيعة النثر القرآني، وتمييز مراحل النثر العربي وتاريخه. فإذا كان القرآن استخدم السجع فقد استخدم إلى جانبه كل ما عرفه النثر العربي من أساليب ليسجل أعلى درجات الإعجاز في كل منها، وإذا كان السجع قد نال تقديسا دينيا فقد يمكن تلمس ذلك في الجاهلية حينما كان أسلوب الكهان وأمثالهم، ولقد نهى الدين عن السجع لمضاهاة الكهان، ولأنه خروج على طبيعة اليسر في التعبير، ولما فيه من الفراغ الفكري والفضول اللفظي... وحسبك أن أحلك مراحل النثر العربي هي التي صار السجع فيها غرضا من الأغراض الفنية)⁽¹⁶⁾.

ألوان القصص العربية: (ويمكننا بواسطة ما دونه العباسيون أن نعرف ألوان هذا القصص الذي كانوا يتناقلونه بينهم، وربما كان أكثر هذه الألوان شيوعا على ألسنتهم أيامهم وحروبهم وما سجله أبطالهم فيها من انتصارات مروعة وما منيت به بعض قبائلهم من هزائم منكرة، وقد ظلوا يقصون هذه الأيام والحروب إلى أن تناولها منهم لغويو القرن الثاني للهجرة ورواته، فدونها تدوينا منظما على نحو ما هو معروف عن أبي عبيدة في شرحه لنقائض جرير والفرزدق، وتوالى من بعده التأليف فيها والعناية بها)⁽¹⁷⁾.

بعض مواضع القصص: (وعلى نحو ما كانوا يقصون عن ملوكهم وأبطالهم كانوا يقصون عن ملوك الأمم من حولهم وشجعانهم، يدل على ذلك ما جاء في السيرة النبوية من أن النضر بن الحارث كان من شياطين قريش ومن كان يؤذي رسول الله ﷺ وينصب له العداوة، وكان قد قدم الحيرة وتعلم أحاديث ملوك الفرس وأحاديث رستم وإسفنديار، فكان إذا جلس رسول الله ﷺ مجلسا، فذكر فيه بالله، وحذر قومه ما أصاب من

¹⁵ كارل بروكلمان: تاريخ الأدب العربي، الجزء الثاني، ترجمة عبد الحليم النجار، ط 4، دار المعارف، ص: 107.

¹⁶ كارل بروكلمان: تاريخ الأدب العربي، الجزء الثاني، ترجمة عبد الحليم النجار، ط 4، دار المعارف، ص: 107.

¹⁷ شوقي ضيف، ص: 399.

قبلهم من الأمم من نعمة الله خَلَفَهُ في مجلسه إذا قام، ثم قال: أنا والله يا معشر قريش أحسن حديثاً منه، فهل إليّ، فأنا أحدثكم أحسن من حديثه، ثم يحدثهم عن ملوك فارس ورستم وإسفنديار...⁽¹⁸⁾.

بعض مواضع القصص: (ومما لا ريب فيه أنهم كانوا يقصون كثيراً عن كهانهم وشعرائهم وساداتهم، وهو قصص استمدت منه كتب التاريخ والشعر والأدب معينا لا ينضب من الأخبار، وارجع إلى تراجم صاحب الأغاني فسترها تحفل بمادة غنية من القصص، وقد بثوا فيها غير قليل من قصص الهوى، كقصصة المرقش الأكبر وصاحبته أسماء...)⁽¹⁹⁾.

قصص التعرف بين العاشقين: (وإذا صحّ ما ذهب إليه بروكلمان من أنّ تعرّف أحد العاشقين على الآخر عن طريق الخاتم شائع في كثير من الحكايات عند أمم غير العرب، كان معنى ذلك أن قصص الجاهليين حتى في الحب تسربت إليها عناصر من حكايات العشق المماثلة عند الأمم الأجنبية، ويدخل في هذا الجانب بعض خرافاتهم عن الحيوانات التي يلتقون فيها بخرافات الأجانب...)⁽²⁰⁾.

قصص الجن عند الجاهليين: ومما لا شك فيه أن عرب الجاهلية قصوا كثيراً عن الجن والعمارة والشياطين، وقد زعموا أنها تتحول في أي صورة شاءت إلا الغول فإنها دائماً تبدو في صورة امرأة عدا رجلها، فلا بد أن تكونا رجلي حمار. وكثيراً ما تترأى الجن في صورة الثيران والكلاب والنعام والنسور. وكانوا يزعمون أنّ أهم منازلها أرض وبار وصحراء الدهناء ويبرين. ومن غير شك دخل كثير من قصصهم عنها في كتب الأساطير والعجائب التي ألّفت في العصر العباسي).

القصص الجاهلي والشك: (إن شيئاً من هذا القصص الذي يضاف إلى الجاهليين لم يصلنا مدوناً مكتوباً، ولذلك كما نتهمه جملة، وإنّ كما بعد هذا الاتهام نعود فنزعم أنه يصور لنا مادة قصصهم وروحه وطبيعته وكثيراً من ملاحظه، ولكن لا بصورة دقيقة، وإنما بصورة عامة)⁽²¹⁾.

الحكم والأمثال: (وأكثر حكمهم وأمثالهم لا يعينون قائلها، وهذا طبيعي لأنها تنبعث غالباً من أناس مجهولين من عامة القبائل، ممن لا يُجدون، ولا يحفل بهم الناس، نهم أيضاً لا يحفلون بأنفسهم لأنهم من العامة، والعامة عادة لا يهتمون بنسبة فضل إليهم. ولا بد أن نلاحظ أنّ بعض أمثالهم يخفي المعنى المراد منه.

¹⁸ شوقي ضيف، ص: 400.

¹⁹ شوقي ضيف، ص: 400.

²⁰ شوقي ضيف، ص: 402.

²¹ شوقي ضيف، ص: 403.

ومن أجل ذلك كان لا يُفهم إلا بالرجوع إلى كتب الأمثال، كقولهم: "بعين ما أرينك"، فإن معناه: أسرع، وهو معنى لا يتبادر إلى السامع من ظاهر اللفظ، ومن ثمّ علّق عليه أبو هلال العسكري بقوله: "هو من الكلام الذي قد عُرف معناه سماعاً من غير أن يدلّ عليه لفظه".

ولا بدّ أن نلاحظ أيضاً أنّ الأمثال لا تتغيّر، لا تشدّ على هذا النظام، بل إنّ طائفة منها تدخل في الصياغة الجاهلية البليغة، إذ نطق بها بعض بلغائهم وفصحائهم من أمثال أكثم بن صيفي وعامر بن الظرب، وكان خطباءهم المفوّهون كثيراً ما يعمدون إلى حشدها في خطبتهم، يقول الجاحظ: "كان الرجل من العرب يقف الموقف فيرسل عدة أمثال سائرة، ولم يكن الناس جميعاً ليمثلوا بها إلاّ لما فيها من المرفق والانتفاع"، وتبع شعراؤهم خطباءهم يودعونها أشعارهم، ومن ثمّ كما نجد كثيراً منها يتم له لحنه الموسيقي، فإذا هو شطر // أو بيت. وكثيراً ما نلاحظ في بعض عباراتها احتفالاً بتوازن الكلمات توازناً ينتهي بها إلى السجع كما نلاحظ في بعض جوانبها اهتماماً بالتصوير، ومن أجل ذلك يقول النّظام إنها "نهاية البلاغة لما تشتمل عليه من حسن التشبيه وجودة الكناية"⁽²²⁾.

جمالية المثل: (فإنك تحس جمال الصياغة وأن صاحب المثل قد يعمد إلى ضرب من التنعيم الموسيقي للفظه، فإذا هو يسجع فيه أو إذا هو ينظمه شطراً من بيت. وقد يعمد إلى ضرب من الأخيلة، ليجمّم المعنى ويزيده حدّة وقوّة. والحق أنّ كل شيء يؤكّد أن العرب في الجاهلية عنوا بمنطقهم واستظهار ضروب من الجمال فيه، سواء ضربوا أمثالهم أو تحدّثوا أو خطبوا)⁽²³⁾.

أهمية الخطابة في الإسلام: (نجد النثر - وعلى الأخص الخطابة - يعلو صوته في صدر الإسلام على صوت الشّعْر، ثمّ ينتقل في العصر الأموي إلى طور آخر، نتيجة لاحتدام الفتن الحزبية والمذهبية، وتكاثر التيارات الأجنبية، التي بدأت تخطو سريعا إلى البيئات العربية، منذ عهد الفتوح الإسلامية الأولى، أيام خلافة الراشدين، فأصاب النثر في أواخر هذه الدولة تطورا خطيرا آخر، على يد عبد الحميد بن يحيى الكاتب، الذي وضع منهجا جديداً لفن الكتابة، كان بمثابة التمهيد القوي لازدهار هذا الفن الأدبي، في عصره الذهبي خلال القرنين لثالث والرابع الهجريين)⁽²⁴⁾.

²² شوقي ضيف، ص: 408، 409.

²³ شوقي ضيف، ص: 409.

²⁴ الأدب في عصر النبوة، ص: 06.

دراسة أدب العصر ضرورة لا غنى عنها لفهم كثير من وجوه تطور الأدب في العصر الذي يليه (العصر الأموي)؛ إذ كانت الصلة قوية بين أدب العصرين.

في أولهما أكثر جذور الفنون والمذاهب الأدبية في الآخر، ونذكر في هذا المجال نشأة الكتابة الفنية وتطورها في صدر الإسلام، ثم عبد السبيل أمام النهضة الفنية لهذا الجنس الأدبي في العصر التالي، كما نذكر تطور فن الخطابة الإسلامية، واتساع مجالاته، وتنوع أغراضه وألوانه، فكان ذلك كله قاعدة صلبة، وثبتت منها الخطابة إلى عصرها الذهبي في عصر بني أمية⁽²⁵⁾.

طبيعة الخطبة: (أما الخطبة فهي كلام لا يكون إلا شفويًا، يلقى الخطيب على الجمع من الناس، في أمر من أمور الحياة العامة، المتصلة بدينهم أو دنياهم، بقصد التأثير فيهم، وإثارة حماسهم أو إقناعهم بهذا الأمر، قبولاً أو رفضاً)⁽²⁶⁾.

الوصايا:

الوصية في عصر النبوة: (قطعت الوصايا في هذه الفترة - عصر النبوة - الشوط نفسه الذي قطعه الخطابة، فظهرت الوصية الدينية، كما ظهرت الخطبة الدينية، وتناولت من الموضوعات والمعاني ما تناولته الخطبة، متأثرة بالإسلام والقرآن فيما تأثرت به الخطبة من الشكل والمضمون، كما ظهرت الوصية السياسية الممتزجة بالعناصر الدينية)⁽²⁷⁾.

وصايا الرسول والخلفاء: (وهناك كثير من وصايا الرسول ﷺ وخلفائه وصحابته، وأكثرها يغلب عليه الطابع الديني، من وصايا الخلفاء لمن بعدهم ما يتناول أموراً سياسية تتصل بنظام الحكم، وحسن القيام على الرعية، وتنظيم شؤون الدولة، بخاصة في البلاد المفتوحة، في عهد عمر ومن بعده، ومعظمها موجه إلى الولاة والجنود، وإلى من سيضطلع بالحكم بعدهم)⁽²⁸⁾.

من وصايا علي: (من الوصايا الدينية وصية علي بن أبي طالب عليه السلام ابنه الحسن والحسين عند وفاته: "أوصيكما بتقوى الله، ولا تبغيا الدنيا وإن بغتكما، ولا تبكيا على شيء منها زوى عنكما. قولوا الحق، وارحما اليتيم، وأعيننا الضائع، وأضيفا الجائع، وكونا للظالم خصماً، وللمظلوم عوناً، ولا تأخذكم في الله لومة لائم".

²⁵ الأدب في عصر النبوة، ص: 08.

²⁶ عبد الحكيم بلع: النثر الفني وأثر الجاحظ فيه، ط 1، القاهرة، ص: 79.

²⁷ الأدب في عصر النبوة، ص: 200.

²⁸ الأدب في عصر النبوة، ص: 200.

فالمعاني والعبارات والغرض والأسلوب، تحمل كلها خصائص الخطبة الدينية المتأثرة بالإسلام في هذا العصر⁽²⁹⁾.

وصية أبي الأسود: (ومن الوصايا الاجتماعية وصية أبي الأسود الدؤليّ ابنته ليلة عرسها: "يا بنية: كان النساء أحق بأدبك مني، ولكن لا بد لي منه، يا بنية: إن أطيب الطيب الماء، وأحسن الحسن الدهن، وأحلى الحلاوة الكحل. يا بنية: لا تكثري مباشرة زوجك فيملك، ولا تباعدي عنه فيجفوك، ويعتلّ عليك، وكوني كما قلت لأملك:

خذي العفو مني تستديمي مودتي *** ولا تنطقي في سورتي حين أغضب
فإنني رأيت الحب في الصدر والأذى *** إذا اجتمع لم يلبث الحب يذهب

فهذه الوصية تشبه مثيلاتها في العصر الجاهلي من حيث طابعها الاجتماعي، ومضمونها المستمد من حياة العربي في الجاهلية والإسلام، وأسلوبها الذي يظهر فيه قصر الجمل، مع ميلها إلى الموازنة، وإن تخلّصت من السجع الذي لا تكاد تخلو منه نظيرتها في الجاهلية، أمّا تحلية الوصية بالشعر، فلا تخلو منها الوصية أيضا في العصر الجاهلي؛ إذ كان الشعر هو النشاط الأدبي الشائع على ألسنة عرب الجاهلية⁽³⁰⁾.

وصية اجتماعية جاهلية: ومن نماذج الوصية الاجتماعية للجاهلية، وهي تفيد في الكشف عن التشابه في الأسلوب بين هذا النوع من الوصية في العصرين، وصية أكثم بن صيفي بنيه ورهطه، فقال: (يا بني تميم: الصبر على جرع الحلم أعذب من جني ثمر الندامة، ومن جعل عرضه دون ماله استهدف للذم، وكلم اللسان أنكى من كلم السنان، والكلمة مرهونة ما لم تنجم من الفم، فإذا نجمت فهي أسد محرب، أو نار تلهب، ورأي الناصح اللبيب دليل لا يجور، ونفاذ الرأي في الحرب أجدى من الطعن والضرب.

فهي مجموعة من الإرشادات الأخلاقية، والمعاني الحكيمة، المستمدة من تجارب الحياة العربية البسيطة، صيغت في أسلوب يشبه من عدّة وجوه أسلوب الوصية السابقة⁽³¹⁾.

العظات: (أمّا العظات فهي شكل أدبي نثري، يمكن أن يدخل في باب الخطب أيضا، "إلاّ أنّه لا يتعلّق بحال من أحوال الدنيا، أو يتناول أمرا من أمورها، إلاّ بقدر ما يرغب عنها، ويؤهدّ فيها، وإنّما هي عظات دينية خالصة، قوامها التوجّيه إلى الله، والدعوة إليه، والترغيب في الآخرة، والتنفير من الدنيا"⁽³²⁾.

²⁹ الأدب في عصر النبوة، ص: 202.

³⁰ الأدب في عصر النبوة، ص: 202، 203.

³¹ الأدب في عصر النبوة، ص: 203، 420.

وإذا كان هذا هو الاتجاه الموضوعي للعظات، فهي إذن فنّ إسلاميّ خالص، نجم عن الإسلام، وتربّي بين أعضائه⁽³³⁾.

العظات: (العظة كالوصيّة الدينية تماما ولولا أنّ الوصيّة خاصة بمواقف الإحساس بوفاة الموصي، أو رحيله أو نحو ذلك، وموجّهة إلى أهل الموصي أو ولده، لسمّيت العظات وصايا دينيّة أو سمّيت الوصايا الدنيّة عظات)⁽³⁴⁾.

وعظ عمر بن الخطاب رجلا فقال: (لا يُلْهِيَنَّكَ النَّاسُ عَنْ نَفْسِكَ، فَإِنَّ الْأَمِيرَ يَصِلُ إِلَيْكَ دُونَهُمْ، وَلَا تَقْطَعِ النَّهَارَ سَادِرًا)⁽³⁵⁾، فإنه محظوظ عليك ما عملت، وإذا أسأت فأحسن، فإنّي لم أر شيئا أشدّ طلبا، ولا أسرع دركا من حسنةٍ حديثةٍ لذنوبٍ قديمٍ)⁽³⁶⁾.

ووعظ عليّ بن أبي طالب، فقال: (أوصيكم بخمسٍ لو ضربت عليها آباط الإبل لكان قليلا، لا يَرَجُونَ أَحَدُكُمْ إِلَّا رَبَّهُ)⁽³⁷⁾، ولا يخافنّ إلاّ ذنبه⁽³⁸⁾، ولا يستحي إذا سُئِلَ عما لا يعلم أن يقول لا أعلم، وإذا لم يعلم الشيء أن يتعلّمه، واعلموا أنّ الصبرَ من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، فإذا قُطِعَ الرأسُ ذهبَ الجسدُ)⁽³⁹⁾.

³² عبد الحكيم بلع: النثر الفني وأثر الجاحظ فيه، ط 1، القاهرة، ص: 81.

³³ الأدب في عصر النبوة، ص: 204.

³⁴ الأدب في عصر النبوة، ص: 205.

³⁵ لا هيا.

³⁶ عبد الحكيم بلع: النثر الفني وأثر الجاحظ فيه، ط 1، القاهرة، ص: 81.

³⁷ المعنى مستمد من قوله ص: (... إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله).

³⁸ المعنى متأثر بقوله تعالى: ﴿كل نفس بما كسبت رهينة﴾.

³⁹ عبد الحكيم بلع: النثر الفني وأثر الجاحظ فيه، ط 1، القاهرة، ص: 81.